وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة العراقية
مركز البحوث والدراسات الإسلامية
(مبدأ)

مجلة الجامعة العراقية

مجلة علمية محكَّمة نصف سنوية

يصدرها مركز البحوث والدراسات الإسلامية

(مبدأ)

السنة التاسعة عشرة العدد ١/٢٩ ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م

مجلة الجامعة العراقية/ العدد (١/٢٩)

(٢٠١٢م)

الجامعة العراقية

الترقيم الدولي لليونسكو ISSN 1813- 4521

المتابعة: م.م. سلام عبود حسن

تنضيد: مقداد حسين، سوسن فائق، تبارك أحمد، هناء كاظم، أسماء جليل

تصميم الغلاف: أحمد عبد الوهاب

عنوان المراسلات:

العراق- بغداد- محلة ٣٠٨ شارع ٢٢/ الجامعة العراقية

أ.د.إبراهيم عبد صايل الفهداوي: رئيس هيئة التحرير

هاتف: ٤٢٥٤٢٥٧

فاكس: ٤٢٥٣٢٤٦

البريد الالكتروني للجامعة: islamicuniversitybag@yahoo.com

البريد الاليكتروني للمجلة: mabda_irsc@yahoo.com

ملاحظة: ما يرد في المجلة من آراء ووجهات نظر لا تعبّر بالضرورة عن آراء هيئة التحرير أو وجهة نظر الجامعة العراقية.

المحتويات

اسم البحث	الصفحة
١- **رسالة في قوله تعالى ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٣٩] للشيخ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١١)هـ- دراسة وتحقيق**	
أ.م.د.حامد عبدالعزيز الشيخ حمد	١-٤٢
٢- **منهاج القرآن الكريم الحواري في التعليم- دراسة موضوعية**	
د.أحمد محمد خلف المومني	٤٣-٧٢
٣- **بناء الشخصية في القصة القرآنية- دراسة نفسية**	
أ.م.د.عبد الوهاب الشيخ حمد	٧٣-١٢٤
٤- **الحديث المنكر عند الإمام ابن أبي حاتم**	
د.صفاء جعفر علوان	١٢٥-١٤٢
٥- **الوسائل العملية لتوقير واحترام المسنين في ضوء السنة النبوية**	
د.فراس محمد إبراهيم	١٤٣-١٧٨
٦- **العمليات التجميلية بين الحل والحرمة**	
م.د.ساجدة طه محمود الفهداوي	١٧٩-٢١٢
٧- **حقوق اليتيم بين الشريعة الاسلامية والقانون الدولي والدستور العراقي**	
م.م.قتيبة كريم	٢١٣-٢٤٠
٨- **زواج المسيار وحكمه في الشريعة الإسلامية**	
م.م.عمر محمد أمين حسن	٢٤١-٢٩٤
٩- **تنظيم النسل بين حق الوالدين وحق الأمة في الشريعة الإسلامية**	
أ.م.د.حوري ياسين الهيتي	٢٩٥-٣١٦
١٠- **مفهوم الشر في العقيدة الإسلامية**	

اسم البحث	الصفحة
د.عبد الله عبد المطلب عبد الحميد النعيمي.....	٣١٧-٣٣٨
١١- أثر الإسلام في شعر جميل بثينة د.ليلى محمد الحيالي.....	٣٣٩-٣٧٢
١٢- الدرس النحوي بين الحداثة والعراقة أ.م.د.حسين علي السعدي.....	٣٧٣-٣٩٤
١٣- المؤرخ عبد الرحمن الإربلّي ٦٤٠- ٧١٧هـ وكتابه: خلاصة الذهب المسبوك المختصر من سير الملوك د.محمد صالح جواد مهدي.....	٣٩٥-٤٢٠
١٤- ديوان المظالم والجانب الإقتصادي د.أحمد ياسين معتوق.....	٤٢١-٤٥٢
١٥- المسؤولية الدولية للمنظمات الدولية د.بشير جمعة عبد الجبار د.رسول حسين علي.....	٤٥٣-٤٨٢
١٦- التغطية الصحفية لمشروع عودة الكفاءات العراقية المهاجرة دراسة تحليلية للأخبار والتقارير في جريدتي الصباح والزمان للمدة من ١- ٢٠٠٨/١٢/٣١ م.م.علي عبد الهادي م.م.علياء قاسم ثامر.....	٤٨٣-٤٩٨
١٦- Translation Today & Tomorrow د.صباح شهاب أحمد.....	٤٩٩-٥١٤

الدرس النحوي
بين الحداثة والعراقة

أ.م.د. حسين علي السعدي
وزارة التربية- الكرخ الثانية

المقدمة

يقوم هذا البحث على ملاحظة أن الدراسة النظرية والتطبيقية للدرس النحوي عند المتقدمين استوعبت كلَّ مطالبه، ولم يبقَ إلاَّ من يجتهد في مسائلَ قد يجد فيها الدارس مخرجاً في اتساع ذلك الاجتهاد. ولذلك أُشير فيه إلى أن علم النحو بتطوره واتساع أفقه وضع وضعاً يلائم ما انتهى إليه الدرس النحوي في ناحيتيه العلمية والتطبيقية.

وفي هذا مهدت ببيان ما ينبغي أن نسلكه في درس النحو حتى يساير الدراسات اللغوية الأُخرى في عصرنا الحديث.

ليس من غرضي في هذه الصفحات أن أعرض للقول في أصل الدرس النحوي عند القدماء، ونشأته، وبيان أطواره الأوليّة حتى استقام علماً صالحاً في توثيق الجملة العربية في حلقات الدراسة الموسعة، وليس من شأني– أيضاً– أن أبحث فيما طرأ على هذا الدرس من العوامل التي أخفقت بمحاولتها المساس بأصالته ومنهجه.

أصبحنا بذلك نرى لغتين: إحداهما لغة فصيحة يقصد إليها الخاصة في الشؤون المهمة من الحوارات والمراسلات والمكاتبات.

والثانية لغة عامية: هي لغة السواد الأعظم من الناطقين بالعربية.

وحسبنا هنا أن نقف حيث نعيش وننظر في هاتين اللغتين، وما عسى أن يفصل بينهما لنحافظ على الفصيح المستعمل.

هذا الذي ندرَّسه في مراجعه المقررة، ونُحمَّل الطلاب على تأثُّره، أو الانتفاع به، ونزوِّدهم بالوسائل العلمية التي تعينهم على فهمه وتذوقه في الاستعمال الصحيح وفيما يقرأ وينطق به.

لا خلاف أن الدرس النحوي الحديث بني على ما أُسس في الدرس النحوي القديم في معالجة العامية، فقيَّد ألفاظها وجملها ونحوها، ولهجاتها، إما لأنها طور من أطوار التأريخ اللغوي، وإما لأنها قد تكون أَساساً لهذه اللغة التي ينتفع بها فيما بعد.

والعامية لا تعد لغة رسمية، ولا يعد أدبها أدباً يدرس على أنه مقرر يحتذي به المتعلمون، لأمرين:

الأول: شيوع الخطأ اللفظي، والخروج على قوانين النحو والصرف مما أدى إلى هجرهما وخضوع الجملة العربية إلى تأليف أساليب خاطئة.

والثاني: أغلب ما يجري على لسان العامية من المعاني الهزيلة، والجمل التي تتصل بالحياة العادية، وهي أوامر ونواهي وأخبار بسيطة.

مقابل هذا نجد أن الدرس النحوي يهدف إلى أمرين:

الأول: صحة اللفظ في الجملة العربية.

والثاني: سمو المعنى وقيمته، كي يستحق أن يسمع أو يقرأ.

وقد زها الدرس النحوي منذ العصر البصري الأول وتواردت عليه فيما بعد جهود النحاة واللغويين، وألفت فيه كتب شتى تجمع مسائله المختلفة في النحو والصرف[١]. معتمدة على النصوص الأُولى، فوضعوا له قوانين عامة عرفت بالنحو العربي. تسنده ملاحظات وأحكام نقدية أفادت العلماء، فأحالوها قوانين وأُصولاً.

فكانت أساساً صالحاً لتكوين قواعد نحوية قامت بوظيفتها فيما مضى وهي مسايرة لتوجهات اللغويين والنحويين في الاكتمال لعلها تنهض بالواجب الملقى على عاتقهم. ومن يقف على كتاب سيبويه (ت١٨٠هـ) يتراءى له ما قلناه من أن الدرس النحوي والصرفي كانا عاملين مهمين في الجهد العلمي، وأن هذين العلمين قد عاشا مختلطين لم ينفصلا إلاّ بعد زمن، وهذا الاختلاط بين مسائلهما طبيعي ما دام موضوعهما واحداً هو النص العربي والقرآني.

هذه القواعد أرشدتنا إلى الطرق والوسائل التي تجعل كلامنا نافعاً مؤثراً على وفق المقاييس العامة التي نقرر بها ما في الكلام من فائدة، أو قوة بيان.

إنَّ الدرس النحوي أقرب إلى الناحية الفنية الإيجابية ما دامت قواعده ترشدنا إلى الإنشاء الصحيح، وإلى الطرق المختلفة لتأليف الكلام المفيد وقوة تأثيره، بغض النظر عن نوع الفن الأدبي الذي يمارس.

الدرس النحوي يفرض أن الكلام قد تم إنشاؤه، وانتهى منه صاحبه، ثم يعرض علينا مقاييسه العامة التي نقيس بها الكلام لبيان قيمته الفنية، والحكم له أو عليه، فهو يساير النص ابتداءً ويحكم عليه متأخر الوظيفة.

الدرس النحوي أكثر ما يعني بالجملة، وهو يفرض أن المنشئ لديه ما يود أن يقوله، أو يكتبه من المعاني والأفكار أيّاً كانت قيمتها أو درجتها من السمو، أو الضعة، ثم يرسم له خطة الأداء قولاً، أو كتابة دون المساس بالأساليب والمعاني. فهو يبين مقدار أثر

القاعدة النحوية عند القارئ، أو السامع، وأيضاً يبين في الجملة- من ناحية عامة- مقدار ما فيها من التطبيق والقوة البيانية.

وهذا يعني أن دائرة الدرس النحوي تتسع كلما كانت الجملة أوضح وأدق في مسايرة الحياة العامة.

الدرس النحوي عرضة لكثير من توجهات الباحثين ومحاولاتهم، إيجاباً أو سلباً، وهي محاولات تزيده قوة ومنعة، وإيضاحاً وتعليلا وتدعم درسه.

الدارسون يحللون قواعده، ويسلكون خطاه، ثم يستخلصون منه مباحث شاملة العمق، وأحكاماً عامة تدون في فصول وأبواب منسقة، هي في حقيقتها تأريخ للدرس النحوي[٢]، ومثله يقال في العصر الأموي والعباسي والعصر الحديث. تجد لكل عصر خواصه العلمية، ومؤثراته المختلفة التي أكسبته قوة متجذرة، فامتاز بها من سواه وصار علماً مستقلاً عن سائر العلوم.

إن نتائج هذا الدرس هو تأريخه الذي يمكن أن يظهر ببيان المشخصات النحوية لكل عصر مع شرح أسبابها، وهذا يدلنا على أن الدرس النحوي ليس قصصاً وأنساباً ونوادر، وإنما هو قواعد وأُسس تخضع للنقد والتحليل والتعليل، شأنه شأن أيِّ علم إنساني، وعلى هذا قام الخلاف حوله في وجهات النظر العالية.

فمن نظر الى مسائله الواقعية، يرى فيه علماً له حقائقه ونتائجه العلمية، تستخلص على النحو الآتي:

١- إن الدرس النحوي علم خالص، كعلوم التفسير والفقه والأصول، وغيرها مما يخدم الإنسان، يعتمد الجملة العربية ومفرداتها، واضعاً لها كلَّ مقومات أُسسها المنطقية من الناحية الفنية والعلمية، مبيناً خواصها الفنية، معنياً بالتحليل والموازنة واستنباط أحكامها العلمية.

٢- إن الدرس النحوي- كما رأيت- هو الأداة الرئيسة التي يعتمدها الدارس قبل كل شيء ما دام يتعمق في درسه وتحليله وبيان خواصه التي يتخذها الباحثون موضوعاً لعملهم.

٣- إن الدرس النحوي نافع لجميع مطالب الحياة الاجتماعية، لأنه جزء مهم من مكونات العالم والأديب، أو المتكلم، أو المدرس...، فإنه ينير الطريق ويعين الدارسين على أن تكون آثارهم اللغوية مفيدة، مؤثرة ممتعة.

وهو مفيد في التصرف في الجمل تبعاً للمعاني المتباينة، ويقي الدارسين من الخروج عن الأُصول المرعية حين استعمال النصوص، وهو- أيضاً- يصحح التراكيب والعبارات متخذاً المعاني الجزئية مقياسه، فيظهر أثره الواضح في حسن التأليف وسلامة العبارة والحرص على دقة المعنى ووضوحه، ولا يقف عند حركات الإعراب بل يشمل موسيقى العبارات ومنطق المعاني.

كما أنه يرفض الأخطاء النحوية عند سماعها، ويرفض التعقيد اللفظي والمعنوي.

وما أُجمل هو بيان مكانة الدرس النحوي، وصلته بالناطقين أو الدارسين مباشرة، لا ينبغي منهم تجاهله، على أن الأدب والأديب لا يتجافيان عنه لكماله من هذه الثقافة العامة، إذ أن الأدب يختصر أفكاره في نصوصه، والأديب يحتاج إليه في منشأه، أو الناقد، أو المؤرخ...، وهذه هي أهم أدواته التي يحسن الرجوع إليها.

الدرس النحوي بين العلم والفن

حينما ندرِّس الطالب قواعد النحو، ومسائله دراسة نظرية منظمة، يقال: إنه يدرس علم النحو، كما يدرس مواضع الكلمة والجملة، وقواعد الحال والتمييز...، فإذا ما أخذ يطبق هذه القواعد تطبيقاً عملياً بإنشاء الكلام الفصيح، قيل: إنه يعالج فن النحو، كأن يرتجل الخطابة أو يكتب القصة، أو يبدع الوصف. فالعلم هو المعارف الإنسانية في أُسلوب منسق، والفن هو هذه المعارف في شكل عملي تطبيقي، وكلاهما نافع في إرشاد الكاتب والشاعر والعالم والفيلسوف الى خير المثل التي تهب لآثارهم الفنية في الإفادة والتأثير. }ونستطيع هنا أن ننسبه إلى الأدب بمعناه العام، فيدخل في دائرة العلوم التي تبحث في علاقة الإنسان بالزمان والمكانِ[٣]، وعلاقة أفراده وجماعاته بعضهم ببعض، كالتأريخ والجغرافية والقانون والاجتماع والأخلاق.

وما الفائدة من هذه الدراسة النظرية للدرس النحوي؟

ألاَ يستطيع الإنسان أن يكون فصيحاً دون أن يدرس قواعد النحو؟

ومثل هذا قيل لعلماء النحو لما وضعوا للناس قواعد الدرس النحوي، وليس لأحد من الناس أن ينكر صحة ذلك التفكر الصحيح في حسن الرجوع الى قواعده مادام تفكير

النحوي صواباً، وهل يستطيع أحد أن يضمن لنفسه أو لغيره اطراد الصواب وعدم التورط في الأخطاء، ولاسيما في المسائل النحوية العويصة؟

إن الاستعداد الفطري للنحوي في إنشاء القاعدة النحوية يحتم على الدارس استيعابها والإفادة منها، لأن النحوي استوعب تجارب العلماء، فجاءت دراسته العلمية، وهي- أيضاً- تقي الدارس من الزيغ الذي لم ينتبه له، بل ويهديه إلى طرق البيان، ويرسم له المثل الصالحة للأداء، فيفيد ويستفيد من ذلك.

ومن جهة أخرى أن هذه الدراسة النظرية تصقل مواهبهم الأولية فتعلمهم طرق القراءة والفهم والنقد، وتظهرهم على مواطن الاستعمال الفصيح- فضلاً عن- أنَّ هذا الدرس يكسبهم ذوقاً مهذباً يجعل أحكامهم وكتاباتهم بعيدة عن الخطأ، قريبة من الواقع الملموس، التي تبدو واضحة في الملاءَمة بين الكلام وبين حاجة القارئ أو السامع، ويتحقق هذا على النحو الآتي:

١- الدرس النحوي يساعد الدارس على التعبير السليم في رغبة طبيعية(٤). صحيح أن هذه القدرة متفاوتة الدرجات بين الناس، فقد يدرك سرها بالفصاحة وإعطاء التخير في مواطن بداهةً، وقد تكون هذه القدرة هادئة فاترة، فهي محتاجة إلى ما يوقظها ويشحذها من دراسة عميقة لهذا الدرس، ولكنها على أية حال كافية للإنشاء العادي والكتابة العلمية الواضحة.

الموهبة الطبيعية هي السر الأول في نبوغ العالم وإظهار عبقريته النحوية، والذين قادوا سيادة هذا الدرس هم أصحاب الملكات العلمية الراقية، وهم أقدر الناس على الابتكار في هذا الدرس، وأصدقهم حكماً على الآثار الكتابية، وأكثرهم انتفاعاً بالدراسات النظرية والتطبيقية.

٢- طالب الدرس النحوي، لا يكتفي بهذه الموهبة الطبيعية، بل يحاول دائماً صقلها وتهذيبها وترقيتها لتقوى، وقد يطرد نموها لتجاوز الدرجة الوسطى إلى مستوى النبوغ والابتكار النحوي، وهنا نجد عراقة الأساليب وجدتها وأصالتها وفرضها على الجانب العلمي- فعل ذلك سيبويه قديماً والذين اتخذوه إماماً- ويتمسك كثير من المحدثين بالإيمان، ولولا ذلك ما كان لدينا هذا الدرس، بل ووقفت حركة التجديد(٥).

الأسلوب النحوي:

من الواضح أن الأُسلوب النحوي لا يقيد الدارس بالقوانين الموضوعة التي من شأنها أن تغلب من حرية الطالب، وتحد من كفايته، على أن أساليبه التي تتراءى أول ظهورها شاذة غريبة، كثيراً ما تصبح بعد حين مألوفة مقررة أو مستحبة متبعة، فإذا خرَّجنا الدرس النحوي على هذه النظرة نكون قد الغينا جهود السابقين وعرَّضنا الناشئ لأفكار قد تضرُّه، وعليه فمن الخير كل الخير أن ينتفع بآثار السابقين لتكون له نقطة ابتداء وإرشاد، وله بعد ذلك أن يبتكر ما شاء في ظل هذه الآثار وعلى هدى من أصول الدرس النحوي حتى لا يصابَ بالشطط، وعلى هذا الأساس نجد الكليات والمعاهد العلمية تأخذ الطالب بدراسة النحو قديمه وحديثه معاً، لعلها تعرض عليه ما يختار من أساليب في الإفادة والنبوغ.

وإذا لاحظنا هذه الأساليب النحوية من ناحية عراقتها، حينئذ نقف على غايتها التي هي عمدة مطالبه التعليمية والتثقيفية.

على أنَّ التصرف والاختلاف قائم بين النحويين في صوغ العبارات بين إيجاز وإطناب، وسهولة وإغراب، وبساطة وتعقيد، وجمال وتنافر، ويكون قبل ذلك في اختيار الأفكار وكيفية ترتيبها ترتيباً منطقياً، أو مضطرباً، ووضوحها أو غموضها وصحتها، أو خطئها وإخضاعها لطريقة الاستقراء والاستنباط، وما مقدار ابتكار النحوي في ذلك، أو تقليده، فلكل نحوي مسلكه ومذهبه في ذلك، أو أُسلوبه في تشخيص القاعدة النحوية. ولو نظرنا إلى كتاب سيبويه (ت١٨٠هـ)، أو كتاب المقتضب للمبرد (ت٢٨٥هـ)، أو كتاب الأُصول لابن السراج (ت٣١٦هـ) كيف اختلفوا في طريقة العرض بين البحث العلمي المنسق والمنهج النحوي، وكيف لو نظرنا إلى مناهج المحدثين من أعلام القرن السابع الهجري وما بعده كابن مالك (ت٦٧٢هـ) وابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ)، وابن يعيش (ت٦٤٣هـ) فانك واجد أنماطاً شتى وأساليب متباينة تجعل لكل فرد طابعاً ممتازاً يختلف تمام الاختلاف عن الآخر.

وهم جميعاً يتناولون عناصر المركبات كلها، التي تقوم على أساس الصلة بينها، وأين كان العنصر اللفظي مظهر الفكر، لأنه يمثل الجانب الحسي، وهو أيضاً يتضمن التفكير والتغيير.

وعلى هذا فقد اشتبه على بعض الدارسين هذا العنصر اللفظي في تركيب القاعدة النحوية[٦] التي يعبر عنها بنظم الكلام أو تأليف الأداء، أو العبارة اللفظية المرتبة لاداء المعاني حيث نريد أن نتكلم بايضاح. وهذا يقتضي وحدة النص الذي لا يمكن الفصل بين عناصره، لأن الكلمة الواحدة لا يتصور معناها إلاَّ مع سائر العناصر المركبة للجملة، كما أنها لا تبدو بغير تمامها.

وهذا يعني أن الأسلوب العلمي لا يمكن ملاحظته إلا بما وراء اللفظ من فكرة، أو تعبير، لأنه يمثل وحدة موضوعية واحدة لا تتجزأ.

فالدارس (المستجد) الناشئ يقف على حروف العربية وتأليف الكلمات منها، ثم تأليف الجمل من الكلمات تأليفاً خبرياً أو انشائياً، فعلية كانت أو اسمية ايجابية أو سلبية مع ملاحظة الفروق الدقيقة بينها وينتقل من الجمل الى الفقرات المؤلفة من الجمل مفصولة أو موصولة حسب مقتضيات المعاني. فالدارس يبدأ من الألفاظ والجمل والعبارات وينتهي إلى ما يعرف بالقاعدة النحوية التي يسترشد بها إلى الأُسلوب النحوي.

أما العالم النحوي فهو على العكس من ذلك إذ يبدأ باختيار الموضوع وينتهي بالألفاظ. ولذلك كان الدارس النحوي منصرفاً إلى تخير الكلمات الفصيحة الدقيقة المعنى، المتلائمة مع أخواتها، حتى تطمئن عناصر العبارة في موضوعها، كي يجمع الدارس بين وضوح التفكير وارتباطه بالتعبير الفصيح.

وهذه الدرجة تتطلب من غير شك مرانة دائبة وصبراً طويلاً وذوقاً لغوياً يملأ الأساليب النحوية، مع نقد صائب، وهذا ما يمكن النحوي باختيار التفسير الصائب لحسن اختيار التعبير.

فالنحوي يرتبط عمله بين عنصرين أساسيين: الأفكار والعبارات.

وأما اختيار الأفكار وتنسيقها، وإيثار الكلمات الدقيقة والجمل الواضحة، فذلك عمل تهيئة الطريق للصياغة النحوية التي تتصرف في تلك العناصر بما تراه أليق بموضوع الكلام. وأما العنصر اللفظي وهو ما يتصرف إليه اللفظ عند الاطلاق، فيمكن أن تعتبر العناصر هي الكلمة، والجملة، والفقرة، والعبارة وعلى هذا مسار الدرس النحوي الصحيح[٧].

اختيار الأساليب النحوية:

ونعني بها، الموضوعات التي تتناول العبارات اللفظية التي هي مظهر التفكير والتعبير. وهي في الواقع مظاهر تطبيقية لما يساير الموضوع من العبارات، ومحطها الموضوع والدارس النحوي.

فاختلاف الأساليب باختلاف الموضوعات، والموضوع هو المادة التي يختارها النحوي ليعبر بها عما يصنعه من تفكير عقلي يرسم اللبنة التي تلائم قواعد الموضوع.

فالدارس النحوي حينما يريد كتابة موضوع عليه أن يختار الأفكار التي يريد أداءها لجدتها، أو قيمتها، أو ملاءمتها لموضوعه، ثم هو يرتب هذه الأفكار بما يناسبها لتكون أدعى إلى فهمها وحسن ارتباطها في ذهن القارئ وهو يعبر عنها بالألفاظ القاعدية- الأُسس النحوية- فإذا ما فعل ذلك حصل على الموضوع النحوي.

والدارس يعبر عن موضوعه بالأساليب الكاشفة، التي يتخذها وسيلة لنشر المعارف، وتغذية العقل دون أن تطغى شخصيته فيها، فهو يقف عند هذه الحقائق والمعارف، ولا يجعل قصده تغذية العقل بالأفكار، وإنما يعرف هذه الحقائق، ويختار أهمها وأبرزها الذي يستطيع أن يجد فيها ما خفي من تفكيره، وتأثيره، ثم يفسر ما اختار تفسيراً خاصاً به لا يخرج عن أقرانه، بما يخلع عليه من نفسه أسلوبه وطريقته في نقل الأفكار إلى القراء والسامعين.

بهذا يدخل عمله الجديد دائرة ما يسمى (النحو)، والغرض منه- حقيقة- هو أداء الحقائق قصد التعليم وخدمة المعرفة، وإثارة العقول، دون إثارة انفعال في نفوس القراء والسامعين، وذلك بعرض الحقائق النحوية الواضحة كما أدركها، أو تصورها الدارس النحوي، وهو يسعى لأن تكون عبارته متمثلة بالدقة والتحديد والاستقصاء، لأنها بناء وتشييد.

وهو يسعى- أيضاً- لصنع مصطلحات علمية تمثل مظهره الأصيل الذي يهدف إليه[٨].

وإذا أراد أن يكون منهجه ميسراً واضحاً، صادراً عن عقل رزين يحمل جزالة وقوة تعبِّر عن نفس قوية كان هو النحوي.

صحيح أن الدرس القديم أثبت عراقته وأصالته في العمق النحوي، ووقف المحدثون يكررون الفكرة ويرددونها، ولكن الجديد مطلوب، لأن يأخذ المعنى المحدث ويعرضه علينا

في صور بيانية مختلفة تمثل الإجلال والإعظام لكلا الإسلوبين. والخلاصة أن بينهما فرقاً في المصدر والغاية والوسيلة والشدة والعمق بما يناسب العصر.

وقد يتجه بعض المحدثين اتجاهاً آخر لعله نوع من أنواع الخروج على المألوف بدعوى الجديد، ورفض القديم بقول: إن مواهب العبقرية وحدة واحدة، والتفكير صنف واحد، فلا فرق بين قديم وحديث[٩]، فهو تعبير لا يرضى به المعتدلون، وهل تنبهوا إلى أن النفس البشرية لا تكون بحال واحدة دائماً؟ ألم يلاحظوا تلك الفروقات ذات الخواص المتباينة؟ نحن نطمح أن تكون تلك الدعاوى جادة، لا فراراً من دقة النقد العلمي، ولا هروباً من التحليل الدقيق، واستخلاص ما فيها من ميزات موضوعية هي التي تفرق بين ما هو عريق وبين ما هو جديد محدث. والجميع في خدمة هذا الدرس الذي تبدو فيه المظاهر الموضوعية تلائم طبيعته.

الاختلاف الموضوعي:

إن ظاهرة التوافق تظهر في أن كلاً من القدماء والمحدثين يتناول الموضوعات التي يتناولها صاحبه بما يتصل بهذا الدرس.

فالمبتدأ أو الخبر والنفي والاستفهام والحال والتمييز... إلى آخره هي موضوعات نحوية مختلفة، والكل يتناول موضوعه بالطريقة التي تبدو فيها شخصيته وعباراته الخاصة وفكره، ومعنى هذا أن طبيعة كل منهما تتصل بالأُخرى وأنهما جميعا يكونان غذاء العقل. وهذه الظواهر الموضوعية التي تذكر تعد فيه أقوى المظاهر وأحسنها.

وعلى ناحية الخلاف الموضوعي هذا تقوم المظاهر التي تتراءى في اسلوبها، وهي ظواهر تميزه كمّاً وكيفاً، أي أنهما يهدفان إلى القاعدة النحوية.

وهما– أيضاً– ينزعان دائماً إلى طبيعته التقريرية وأصله العقلي النافع الذي يظهر واضحاً في الفصول العلمية في كتب النحويين[١٠].

ولذلك كان من العسير أن نظفر بقاعدة علمية دقيقة لتقسيم مظاهر الموضوعات المختلفة، وهذا هو سبب اضطراب الدارسين القدماء والمحدثين في ذكر أبواب وفصول الدرس النحوي، وحصر أقسامه. ومن أراد الوقوف على مثال تطبيقي يجد ذلك واضحاً في كتاب المقتضب للمبرد (ت٢٨٥هـ)، وكتاب الأُصول لابن السراج (ت٣١٦هـ).

ولست تجد اثنين يتفقان في هذه الخواص أو جلها، كماً وكيفاً، إذ كل انسان يمثل نفسه، لأن شخصيته وحدة واحدة، وذات طبيعة محدودة، ونتيجة ذلك تجد أن النحوي حين يعبر عن شخصيته تعبيراً علمياً نتيجة تجربته وعمقه فيها، ينتهي به الأمر الى أهمية هذا الجهد في طريقة التفكير والتعبير عنه الذي هو يمثل عقله ولغته. تلك العناصر هي التي تتباين بين النحويين. وعندما نقف على مخزون ما تركه لنا القدماء من مؤلفات نقف مبهورين على ما يمثله من كم عظيم القدر متصفاً بأعمق تفكير وأحسن ترتيب للمعاني، وأحرص على اختيار جمال العبارة وصفاء التعبير. وبذلك غزرت معانيه وتهذبت عباراته، فكانت الملاءمة بين الألفاظ والمعاني من أعظم ما ابتكر في حياة الدرس النحوي، ولذلك وجدنا الطبقات النحوية التي بلغت بهذا الدرس مكانة مهذبة يشار إليها بالبنان والعظمة. وليس من شك في أن ثقافتهم التي تميزوا بها هي التي اكسبتهم الحياة الدائمة، فأغنوا بها هذا الدرس من اشراق الديباجة وعمق التفكير والغوص فيه إلى مسافات ابتكار وتفنن(١١).

وهذا يدل على علو شأن هذه الشخصية التي تجيد التفكير وتحسن أعز مراتب التعبير لما ظفروا به من ثقافة اسلامية أخصبت عقولهم وأنضجت معانيهم.

وهذا هو الذي يميز الحياة العلمية الواضحة وأهلها من حياة هذا العصر الحديث وبين من يعيش بيننا الآن.

أولئك عظمت ثقافتهم فكانت آثارهم، وهؤلاء ظفروا بها ثروة متنوعة المعاني والأُسس، ولم يحسن البعض التعامل معها، ولكن هذا لا يمنع من وجود عظماء بلغوا الدرجة في عظم هذا الدرس النحوي ومنحوه وضوحاً وأصالة، وفتحوا آفاقاً جديدة من التفكير المعمق، ثم أنهم طوَّعوا أساليبه اللغوية وطرق تفكيره، وصنعوا درساً نحوياً جديداً يليق بشخصيتهم.

ولكن ما دام مذهبه قوياً خليقاً بالبقاء، فإن الثورة عليه لا تكون إلاَّ فترة تجتازها النفوس لقبول الجديد وإقراره، ثم يصبح سبيلاً معبدة وقانوناً متبعاً رصيناً.

وقد لقيت أفكار ابن مضاء القرطبي (ت٥٩٢هـ) انكاراً، غير أننا نلاحظ أنه لم يُعنَ بالنحو، أو على الأقل لم تظهر في كتابه عنايته بهذا النحو. ومرجع ذلك– في رأينا– أنه لم يكن حريصاً على التوفيق بين مذاهب النحاة، وإنّما كان حريصاً على مهاجمة النحو جملة(١٢).

ولكن الدرس النحوي عاد قديماً، ووجد أبو حيان الاندلسي (ت٧٤٥هـ)، وابن هشام (ت٧٦١هـ) من أخرجهما من زمرة النحاة، وهؤلاء ظفروا بثقافة قوية متنوعة، فجمعوا إلى سلامة العبارة جدة الموضوعات النحوية، وثروة المعاني، فصار نحوهم قيماً نافعاً خالداً على مر الزمن.

إن مفهوم الممازجة نتيجة طبيعية لمواهب الدارس النحوي وصورة لشخصيته، لأنه استمد مقوماته من نفسه وصاغها بلغته وعبارته بما استلهمه من معارف هذا الدرس فانصقلت أفكاره ومواهبه في تكوين موضوعاته والعناية بها.

الكتب النحوية شيء واحد، ولكنها ذو وجهين؛ نرى في كل منهما شكلاً خالصاً يخالف الآخر، وإن كانت المادة واحدة، ففي وجه شخصية النحوي، وفي آخر تأثر هذه الشخصية بما أُسس من هذا المنهج.

وسبب هذا التأثر هو أننا في الأصل لا نعرف هذا الأثر إلاَّ من خلال ما ورثناه من الآثار العلمية، فنضطر إلى الوقوف عندها لمعرفة مكوناتها، ثم نعبِّر بصدق هذه الصلة التي ندَّعيها بين النحويين وبين ما ينتجون من موضوعات.

ميزان الحداثة والعراقة

إن عناصر الشخصية النحوية تظهر من خلال الآثار النحوية التي تركها المؤلف، وهي تظهر للقارئ إذا درسها دراسة نقدية، ووازن بينها وبين غيرها في المواضيع المشتركة ليعرف كيف يختلف النحوي في تفسير القاعدة، وفي التعبير عما يصدر منه. ومن هذا الاختلاف يمكن أن يفرق بين الشخصيات.

وليس من السهل أن نورد هنا جملة صالحة لكل نحوي ونجعلها معرضنا للدرس والاستنباط، فذلك من عمل القارئ الذي يجد في كتب النحو كفايته. وحسبنا أن نورد مثالاً متوخين أن يتحد في الغرض، ثم نتلمس فيه ما يميز صاحبه ليكون مقياساً عليه.

كموازنة أُسلوب النفي أو أُسلوب التعجب أو أُسلوب الاستفهام إلى غيرها، كي يقف الدارس موقفاً دقيقاً يحتاج إلى براعة عمق في مقدار القيمة النحوية، ومقدار البراعة. وحينئذ يجمع بين الانتصار لهذا، ولا يفرط في اللوم للآخر فيعود ذماً ثقيلاً[١٣].

ومع هذا فقد وقف كل من هذا الدرس موقفا نحوياً يدل على شخصية واضحة.

كذا لو أخذنا مثلاً ثلاثة من كتب النحو وأردنا تشخيص أصحابها، نقول: إن الأول منهم يكتب بأسلوب واضح، يغلب عليه التقرير العلمي. وأن الثاني منهم موضوعي في إيجاد الحقائق النحوية، ويعرض مصادره وشواهده، مستثيراً ناقداً، ثم أنه يستعين بها وينتهي الى نتائج قصدٍ في موضوعه العلمي.

وأما الثالث منهم فهو يجمع الوثائق والحقائق وينظمها مع عرضها في سلك منطقي، وينتهي إلى نتائج تجد فيها التواضع والهدوء، فكأنه قدم شواهده بأسلوب صافٍ ودقيق.

وهكذا تجد الشخصيات مظاهرها فيما تركت من آثار.

صحيح أن الأُسلوب العلمي، لا يعد معرضاً قوياً لظهور الشخصية، لأن العلم يرتكز على العقل أكثر من سواه، ومظهر العاطفة فيه ثانوي، والعقل يتفاوت الناس في قوته وانتظام تفكيره، فلا تبلغ أشكاله وألوانه مبلغ العاطفة والأمزجة، على أن الموضوعات العلمية لا تكون الفروق اللفظية فيها كثيرة، ولا قوية، وربما كان خضوعها لمناهج البحث وموضوعاته أشد وأوضح. ومع ذلك فليس ما يمنع- اعتماداً على اختلاف مناهج البحث العلمي، وعلى مقدار تفرد العقل في هذا الدرس وأثر ذلك في العبارة- أن نشير هنا الى مظاهر اختلاف الشخصيات في الكتب العلمية التي تجمعها رابطة الدرس النحوي، والقيام على دعم وتنظيم طرائق البحث العلمي، ولكنها مع ذلك كله تتغاير فيما سلكت من منهج هذا الدرس، وفيما تحروا من غايته وفيما سطروه من أُسس نحوية موضوعية.

الشخصية النحوية:

قلنا فيما مضى إن الشخصية النحوية تظهر جلية في الآثار التي كتبها النحوي والتي من خلالها نلتمس مظاهر الميزات الفردية فيما يبحث وينشئ من موضوعات نحوية مختلفة وأثر هذه الشخصية فيها، ثم أنها تظهر على النحو الآتي:

١-الأولى لفظية: كاختلافهم في الجمل والفقر والعبارات وألفاظها.

٢-والثانية معنوية: كالمجانسة بين اللفظ والمعنى، في التأسيس النحوي.

٣-والثالثة من حيث الصنعة: كاعتماد النحوي الأُسلوب الطبيعي أو المصنوع.

والعبارات هي التي تجمع مكونات هذه العناصر الثلاثة، ثم تتأثر بمنهج البحث وبالموضوع النحوي وذوقه وطبيعته[١٤].

والنحويون يختلفون في ذلك كله تبعاً لطبائعهم وأذواقهم ومنشأ ثقافتهم وبيئاتهم، فترى الموضوع الواحد قد يتوارد عليه أصحابه، فإذا كلٌّ طراز بعينه في اختيار الكلمات، وصوغ التراكيب والعبارات والأمثلة التي تمثل نفس النحوي وعمق عقله. فشخصية النحوي تتخذ من هذه العناصر اللفظية وسيلة للتعبير عن طبيعتها وعرض مزاياها.

وإذا تأملت قول المبرد في المنادى المضاف: }اعلم أنك إذا دعوتَ مُضافاً نصبته، وانتصابه على الفعلِ المتروكِ إظهارُه وذلك قولك: يا عبدَ اللهِ، لأن (يا) بدَل من قولك:أدعو عبدَ اللهِ، وأُريد، لا أنك تُخبر أنك تفعلُ، ولكن بها وقع أنك قد أوقعت فِعلاً. فإذا قلت: يا عبدَ اللهِ، فقد وقع دعاؤك بعبد اللهِ، فانتصب على أنه مفعول تعدَّى إليه فِعْلُك...{[١٥]}.

وقول ابن السراج فيه– أيضاً–: }اعلم أن كل مضاف منادى فهو منصوب على أصل النداء الذي يجب فيه، تقول: يا عبدَ اللهِ أقبلْ، ويا غلامَ زيدٍ افعلْ، ويا عبدَ مرةٍ تعالَ، ويا رجلَ سوءٍ تبْ...{[١٦]}. وأجريت بينهما هذا التمايز، ظهر لك ما يأتي:

دقة ابن السراج، ورقة المبرد، وجزالة المبرد وقوته في المعاني، ثم سهولة ابن السراج، وتدقيق وصرامة في الجمل عند المبرد، وابن السراج سلس العبارة، والمبرد محكم العبارة يتقن الصنعة ويؤلف التراكيب بحكم العقل، وابن السراج سريع العبارة موجزها. المبرد آثاره عقلية وصنعته وحذره وأناته وذكاؤه في التنسيق المنطقي وإحكام التراكيب وترتيبها واستنتاجها. فعبارته دقيقة فيها تمهل ليظفر بالنافذ السارب، وأحياناً يطنب المبرد وراء الأفكار والتعابير، ويكثر من تقسيمها.

أما ابن السراج فتجد شخصية عنيفة جعلت الكلمات قوية متحركة وتراكيبه موجزه منوعة، والعبارة منساقة بسرعة. فالتعبير عندهما يقترب في العمق والأصالة، ولكن لكل ميزاته الشخصية فيما يقول.

والاثنان يتخيران التراكيب الجزلة والألفاظ النادرة، المبرد دقيق الكلمات بسيط العبارات تشيع فيها المصطلحات العلمية والنحوية، رتيب الأسلوب، لا يسلم من الجفاء، معنيٌّ بالمعنى النحوي أكثر من اللفظ، نزعته تقريرية. وإذا كان لا بد من اختصار ذلك كله، فابن السراج في أُسلوبه النحوي قوي شائك.

وإذا نظرت لتتبين شواهد ذلك بين المعاصرين من النحويين وجدت أشكالاً شتى من العبارات التي تمثل الشخصيات، فاختر منهم ما شئت ومِّيز.

أما مقدار التمايز بين اللفظ والمعنى، والأصل الذي يتصل به هذا المظهر، هو أن الغرض منه إظهار الحقائق والأسس الموضوعية، وإيصالها إلى القراء–والوسيلة هي العبارة– لأن الغاية هي الإفهام والتعلم وتحقيق أكبر قدر ممكن من المعرفة.

وعندما تتحقق الوسائل اللغوية وتتوافر يستطيع النحوي أن يحقق المجانسة بين اللفظ والمعنى، وأن يجعل كلاً منهما قوة للآخر.

والقاعدة الموضوعية لهذه الظاهرة، هو توافر الدقة في التفكير، معتمدة على الألفاظ والعبارات بما يلائم آلية العمل من غير تكلف ولا صنعة، وهذا هو الطريق الأسلم للشخصية النحوية[١٧].

فالتعبير الطبيعي للنحوي هو الذي يترك الأثر في نفس القارئ، فيشد من رغبته فيه مع استيعابه[١٨]. والنحاة الذين سلكوا هذا الطريق، لم يتشبثوا بصنعة، ولم يحسبوا أنفسهم عند تعمق المعاني، ولا تكلف في الألفاظ، بل تجد جزالة يحقق بها دقة التعبير وحسن الاختيار، }فبدأت أعمالهم محكمة متقنة قد عمل فيها العقل والموضوعية، بعد طول النظر والبحث عن البينة كالفقيه الورع يتحرى في كلامه، ويتحرج خوفاً على دينهِ[١٩]. وعندما تتحقق الوسائل اللغوية وتتوافر يستطيع النحوي أن يحقق المجانسة بين اللفظ والمعنى، وأن يجعل كلاً منهما قوة للآخر.

وقد جاء القرن الثاني بسيبويه (ت١٨٠هـ) أُستاذاً لمدرسة النحاة، أو كان هو هذه المدرسة النحوية، وهو الذي فتح باباً كان فيما بعد طريّا على الدنيا لما دخل فيه من دخل، وكتابه يمثل طوراً طبيعياً من أطوار الحضارة العربية التي تعنى بالدرس النحوي[٢٠]، ليكون أقوم أسلوباً وأجمع بين قيمة الأُسس وقيمة الموضوعات متأثراً بألوان من الفنون والعلوم الإسلامية، وبفراغ وتنافس أكسب العلم هذا الوضع الجديد.

وبعد هذا تواجهنا هذه القضية بين القديم والحديث بين ما هو عريق أصيل وبين ما هو محدث جديد. فإن هذه الثقافة الواسعة التي توافرت للنحويين منذ العصر العباسي، مع ذكاء العقل قد حملتهم على العناية بالمعاني والأساليب النحوية، فغذوا النحو بأفكار فلسفية ومنهج منطقي وأسلوب ديني أحياناً مع عمق التفكير ودقيقه، وكان الخليل بن احمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ) أظهرهم في ذلك[٢١]. وبجانب هؤلاء بقي آخرون محتفظين بالطبع السليم والديباجة السهلة، وظهرت لهم مؤلفات، ثم نشطت حركة النقد، وانتصر جماعة لكل فريق، واختلف الباحثون في أيِّهم أجدر بالدرس النحوي؟ وانتهى القول إلى نظم الكلام على

وفق حاجة المعنى في تأسيس القاعدة النحوية، وبذلك تتحقق المجانسة بينهما مرتكزة على قيمة التفكير.

ولما أفضى الدرس النحوي إلى المحدثين، رأوا مواقع تلك الموضوعات من الغرابة والتكلف فيها، والذي يعنينا هنا أن هؤلاء النحويين المحدثين اختلفوا في مقدار عنايتهم بالصنعة النحوية، فاختلفت موضوعاتهم في التأليف، واحتملت في سبيلها كل غث ثقيل، وتعقيد في المواضيع، علمنا سرَّ ما تورطوا فيه من اضطراب في التعبير، حتى صار هذا الدرس إذا قرئ أجهد الفكر وكد الخاطر في فهمه وقصور أغراضه.

وقد استطاع قسم منهم الإحاطة اللغوية، وقدرتهم النحوية أن يجعلوا موضوعاتهم مقبولة ويخففوا من آثار الصنعة النحوية– ولكنهم لم يظفروا بمكانة السابقين في هذا الدرس– وقد نشأ عن ذلك– أحياناً– فساد الموضوعات وركتها، والتضحية بالمعاني في سبيل الجمل.

وأظهر أساليب الصنعة عندهم ترجع إلى أصلين:

الأول: موضوعي، أي انتقال الدارس من اختصاص الى اختصاص آخر، كانتقال المظهر الفلسفي أو المنطقي العلمي إلى المظهر النحوي.

الثاني: تقليدي، كأن يعيد ما سطره السلف بأسلوب المحدثين، الذي يمثل– أحياناً– عدم الدقة في البحث. حتى عادت موضوعاتهم غثة غير مقبولة.

ومثل هذه الصنعة ظهرت في العصر الحديث حيث تشبث بها بعض من الباحثين ظانِّين أنها مظهر البراعة في الدرس النحوي. ولكن المنصفين من الدارسين وجَّهُوا عنايتهم واهتمامهم بالموضوعات والمعاني، فتحررت كثير من الأساليب غير الموضوعية، وألقت عن كواهلها هذه النظرات غير العملية، وأخذت ترقى مستجيبة للرقي العقلي والذوقي، حتى بلغت الآن منزلة رفيعة على يدِ مفكرين بذلوا من جهودهم وعنايتهم حماية هذا الدرس.

خصائصه الموضوعية:

الموضوعات لها خصائص متنوعة ومختلفة، منها السهل، أو الغامض، أو الموجز أو المطول، ولكن الذي يذكر هنا إنما هو أعم الخصائص الموضوعية، وأعمقها لتناولها جميع الموضوعات لصلتها بنفس النحوي، ومعارفه وذوقه وعباراته، لذلك كان من الأنسب

أن تسمى عناصرَ أو أركاناً. ولعلها ترجع جميعاً إلى أصل واحد هو التعبير الموضوعي للنحوي. فعمقه النحوي يجعل الموضوع مثالياً عندما تتوافر له الوسائل البيانية، فيتحقق هدفه ويصبح منهجه مرآة العقل، وطرق التفكير سواء أكانت قوية أم ضعيفة، لأن مصدرها هو النحوي، وأنسب هذه الخصائص: الوضوح، والقوة وجمال النص، لأن الهدف من النحوي أن يكون واضحاً مفهوماً يرمي إلى إفادة قرائه ورفع مستواهم الثقافي- عندما يتعامل مع مادة جافة ثقيلة- كي تكون ملائمة وميسرة، مع حرصه على أدائه كما هو، فالموضوع صفة عقلية قبل كل شيء، ومن ثم يأتي بالتعبير اللغوي الذي يتطلب من المنشئ ثروة لغوية وقدرة على التصرف في التراكيب والعبارات لتلائم أفكاره وما يرسمه عمله، فلا يرضى عن كلمة أو جملة تبعث الإبهام، أو الغموض، ولا يشعر الطالب بأن عبارته في حاجة إلى من يعيد توضيحها ثانية.

فالعناية بالقراء والسامعين ومقاربة الكلام لمقتضى حال ما أُسس من هذا الدرس يجعل من المادة النحوية عملاً سهلاً متقبلاً.

النحوي الناجح أمامه خطوتان لتحقيق غرضه في الإفادة: الأولى تتصل بالأفكار ودقتها، والثانية تتصل بالقارئ ومدى رغبته. تُلتمس على النحو الآتي:

١-الدقة النحوية مطلوبة، لأنها ظاهرة الخواص والمعالم في السهولة والصعوبة. صحيح أن الدقة تتعارض مع السهولة، ولكن الكلمات المألوفة تستطيع أداء الأفكار الميسرة كما أن المعاني المعمقة القائمة على التحليل الدقيق، لا بد لها من ألفاظ تلائِمها، فوضوح الفكرة ودقتها وكلمات النحوي المفردة التي يؤثرها، والتجانس بينها تصبح على عاتق النحوي الناجح.

ومما يساعد على وضع بعض الأسس لهذا الدرس التي من شأنها تخفيف العبء على الطالب، نبذ الغريب أو الشاذ عن القاعدة، والميل قليلاً إلى لغة الناس وما يستطيعون إدراكه، وذلك يختلف باختلاف العصور وطبقات الناس، ولكن لسان الحال يتطلب- ونحن أبناء الحاضر- التيسير لهذا الدرس.

٢-تيسير مفهوم المصطلحات العلمية التي وضعت لمعان خاصة، ومحدودة لتكون بين الكتاب والقراء علامات واضحة وروابط عقلية مشتركة، كي لا يعود الموضوع بذلك جافاً، أو خالياً عن روح الفنية العلمية، فيشعر الطالب، أو القارئ بالملالة.

٣-وضوح التراكيب بعد استقرار الفكرة المطلوبة وحسب المعاني التي تؤديها العبارات، ومن خلالها يدرك النحوي أن يحقق من السهولة أبعد درجاتها، أو تحقيق الجلاء لتحري البساطة في صوغ العبارات ومجانبة التعقيد، ثم العناية والاحتفاظ بسموها وقوتها، ومسلك الكلمات والجمل والعبارات في نظام لفظي يمثل الصورة العقلية والتفكير المنطقي المطَّرد، وهذا مما يفيد في تكوين العبارات الواضحة.

٤-وعلى النحوي البارع تجنب الكلمات، أو العبارات التي تدل على معانٍ احتمالية أو الغموض، لأن هذا مما يفسد الكلام، ويزيد في لبس التراكيب والبعد عن المعنى المقصود.

٥-الوقوف من الشواهد النحوية التي يرتبط بعضها في تأليف منسق بحيث لا يتعب القارئ في بيان ترابط الأجزاء كي لا ينصرف المعنى إلى حالة أخرى.

٦-ومرة أخرى نقول إن الوضوح الهادف عند النحوي هو الذي يكسب عمله الثبات والإفادة لمادته.

الأصالة الموضوعية:

إذا كان الوضوح من مستلزمات النجاح، وأولاها بالرعاية، لأنه يحقق الغاية الأساسية للأفهام. فإننا نلاحظ أن الدراسات النحوية يغلب عليها طابع الصعوبة على الأفكار والمعاني العقلية لقصد الثقافة العلمية العامة.

صحيح أن هذا لا يقتصر على نشر الحقائق، وإنما يطال إلى إيقاظ العقول وبعث الأصالة، وإن شئت فسميه العراقة لهذا الدرس في نفوس الدارسين، وبذلك تهب للأفكار حياة أقوى من حياتها العقلية لتكون ممتعة مؤثرة.

لا يختلف اثنان من أن صفة الأصالة تتبع من نفس النحوي وتأثره بقرائه. فهو يدرك الحقائق بوضوح ويعتقدها ويحرص على إذاعتها، فتجد له عبارة ذات صدى، وهي قوة لا تكون بالتقليد والتصنع، وإنما هي قوة ذاتية نابعة من صحة الفهم، وبُعْدَ أغواره.

وإذا كان الغرض من هذه الأصالة، هو الاقتصاد المباشر في إجهاد مواهب القارئ، فإنه يعني إيقاظ عقله ليدرك المعاني النحوية بقوة، ويحظى بمتعة جديدة إذ كانت قوة الأصالة صدمة للعقل، ودعوة للقيمة النحوية في موطن الروعة والفائدة، مع التمسك بالعناصر الثانوية للعبارة والاكتفاء باركان الكلام الفصيح، حتى يترك له المجال لبعث آثاره دون عائق.

إن صفة الأصالة تستلزم- في أكثر الأحيان- الإيجاز في العبارة عامة، وفي التراكيب خاصة، ولذلك تجدها مقتضبة سريعة.

إن لجوء النحوي إلى الإيجاز والاكتفاء بالعناصر المهمة حاجة فورية لبسط الأفكار وإنارة جوانبها، ولذلك نجد مهرة من النحويين يجمعون في أساليبهم بين صفة الإطناب في عرض الأفكار وتذليل صعابها، ثم الإيجاز مرةً لتلخيصها وقوة تأثيرها.

واهتدى نحويون محدثون إلى مواقع وأشكال مغايرة، فظهرت موضوعات ومضامين غير معهودة، وامتدت آفاق مجهولة تبحث عن رواد، وحمَلَ العصر الحديث بتحولاته وتعقيده مسؤولية كبرى أمام الأُمة والتراث، وبرزت أهمية نزوع النحاة إلى أنماط موضوعية جديدة مبتكرة، تتداخل فيها أضواء متنوعة، نلتمسها عند المتأخرين ممن أسهموا بقدر ما في المحاولات الجديدة المحدودة(٢٢).

وانتفض بعضهم على القوالب القديمة يحاولون أن يغيروا من حجم هذا الدرس وهيئته، وما عاد هذا الدرس بأسلوبه المتوارث يقوى وحده على أضواء تجربة الإنسان المعاصر، وكان لا بد له أن يصبح امتداداً للدرس القديم، لا أن يعبر عن الصراع والتأزم، الذي وقع تحت وطأته الدارس النحوي المحدث بتشابك حياته الفكرية القائمة، وتفاعل الموروث بالوافد الجديد.

فتحول القارئ من مؤيد مصفق إلى مشارك في العملية الإبداعية لهذا الدرس، باستيعابه وتفهمه وتمثله ونقده للنص النحوي، وبدأت تنحسر ظلال نحوية قديمة لتحل محلها أجواء محدثة، فتضاءلت موضوعات قديمة وصار الدارس يحمل سمات محلية تؤدي إلى الانتشار.

إن الموقف المتجدد من الدرس النحوي القديم يمثل تطوراً يدعم الدرس النحوي الحديث، وأن انطواء بعض موضوعاته وانتقالها إلى إيجاز واختصار لم تتم لدينا بصورة طبيعية متدرجة، لعوامل خارجية وتأريخية- وسياسية- لا تمت إلى ذلك الدرس بصلة. وعليه يترتب ترسيخ تقاليده، وأن تعمق الصلة في الوسط العلمي بما يمكن أن يغني درسنا النحوي بمواهب جديدة، ومنحى في تعبير مبتكر ليكون أكثر جدوى وفائدة.

صحيح أن كثيراً من أُسس هذا الدرس ما زالت مادة لموضوعات كثيرة لم تستوعبها الدراسات التقليدية بعد، وإن أكد باحثون على قضايا معينة معروفة، افتقرت أحياناً إلى

التحليل والإحاطة بالأسباب والبواعث وإدراك ما دفع الباحث إلى اتخاذ هذا الموقف أو ذاك. ونعجب أنها لم تحظ من قبل بانتباه وعناية.

وظل نحاة كبار عبر العصور، بمواهبهم العالية وإبداعهم المتجدد مع الزمن، وظل هذا الدرس يتحدَّ التأريخ بشكل غريب يصعب أن نرى علماً قريباً له ينضح أصالة فيما يصدر وحقيقة بضرورة الحياة متميزاً بموضوعات يكتبها باحثون بقدرتهم الهائلة على التبويب والتحديد والاتساع، ولكنها تصعب في الاهتداء إليها كمؤشر لفهم جميع ما يحيط به، ولذا يبقى هذا الدرس– برأيي– مع البحوث الكثيرة التي كتبت فيه، مجهولاً في بعض موضوعاته، ومصدراً ثرّاً يمدُ الدارسين بموضوعات لا تنضب، ويعيش الباحث محنته فيها.

الهوامش

(١) ينظر: الدرس النحوي في بغداد: ص١١٦.

(٢) ينظر: العربية بين أمسها وحاضرها: ٥٣.

(٣) العربية بين أمسها وحاضرها: ١٠.

(٤) ينظر: المدارس النحوية، د.خديجة: ١٨.

(٥) ينظر: من أعلام البصرة (سيبويه) هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه: ص٩٩.

(٦) ينظر: الأمثلة النحوية: ١٣٠.

(٧) ينظر: الأمثلة النحوية: ١٣٠.

(٨) ينظر: مدرسة الكوفة: ٢٥٤.

(٩) ينظر: العربية والغموض ص٢٢.

(١٠) ينظر: المدارس النحوية، د.شوقي ضيف: ١٨.

(١١) ينظر: مدرسة الكوفة: ٤٩.

(١٢) ينظر: مقدمة كتاب الرد على النحاة: ص٢٠.

(١٣) ينظر: في علم النحو دراسة ومحاورة: ص٣٠٦.

(١٤) ينظر: مدرسة الكوفة: ٢٥٤.

(١٥) المقتضب: ٢٠٢/٤.

(١٦) الاصول في النحو: ٤١٤/١.

[١٧] ينظر: المثل السائر: ١٣٧.

[١٨] ينظر: نقد الشعر: ٥٥.

[١٩] العمدة: ٤٨/١.

[٢٠] ينظر: عبقري من البصرة: ٩٣.

[٢١] ينظر: الخليل بن احمد الفراهيدي اعماله ومنهجه: ٦٠.

[٢٢] منها كتابا تجديد النحو، وتيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً للدكتور شوقي.

مصادر البحث ومراجعه

١- الأُصول في النحو: محمد بن السري أبو بكر بن السراج (ت٣١٦هـ)، تحقيق: د.عبد الحسين الفتلي، ج١، طبع النجف ١٩٧٣، ج٢، طبع بغداد ١٩٧٣.

٢- الأمثلة النحوية: د.هادي الحمداني، طبع دار السلام، (بحث مستل من مجلة الجامعة المستنصرية، العدد ٣، ١٩٧١-١٩٧٢)، بغداد ١٩٧٢.

٣- تجديد النحو: د.شوقي ضيف، ط٢، دار المعارف ١٩٨٦.

٤- تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج جديد: د.شوقي ضيف، دار المعارف ١٩٨٦.

٥-الخليل بن أحمد الفراهيدي، أعماله ومنهجه: د.مهدي المخزومي، ط٢، بيروت ١٩٨٦م.

٦-الدرس النحوي في بغداد: د.مهدي المخزومي، طبع وزارة الاعلام، الجمهورية العراقية ١٩٧٤.

٧-عبقري من البصرة: د.مهدي المخزومي، طبع وزارة الاعلام، الجمهورية العراقية ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

٨- العربية بين أمسها وحاضرها: د.ابراهيم السامرائي، طبع وزارة الثقافة، الجمهورية العراقية ١٩٧٨.

٩- العربية والغموض دراسة لغوية في دلالة المبنى على المعنى: د.حلمي خليل، ط١، الاسكندرية ١٩٨٨.

١٠-العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، بيروت ١٩٧٢.

١١- كتاب الرد على النحاة: احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء القرطبي (ت٥٩٢هـ)، تحقيق: د.شوقي ضيف، ط٢، دار المعارف ١٩٨٢م.
١٢- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ) تحقيق: د.احمد الحوفي ود.بدوي طبانة، ط١، القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.
١٣- المدارس النحوية: د.خديجة الحديثي، ط٢، وزارة التعليم العالي، بغداد ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
١٤- المدارس النحوية: د.شوقي ضيف، ط٥، دار المعارف ١٩٨٣.
١٥- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو: د.مهدي المخزومي، ط٣، بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
١٦- المقتضب: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، بيروت (ب. ت).
١٧- من أعلام البصرة (سيبويه) هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه: د.صاحب جعفر ابو جناح، طبع وزارة الاعلام، الجمهورية، (من ابحاث مهرجان المربد الثالث ١٩٧٤)، العراقية ١٩٧٤.
١٨- نقد الشعر: أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ)، تحقيق: كمال مصطفى، مطبعة الخانجي بمصر ١٩٦٣م.